في تلك البلاد يبلغون اليوم تسعة اعشار الوطنيين يتمّ بتعليمهم وتهذيبهم نحو الفي راهب من الرهبانيّات الاوربيّة وهم يثنون على تُقاهم وحسن سلوكهم. ولولا نفوذ بعض الاوربيين لكانوا قدوة لكل الفضائل المسيحيّة. والباقون منهم هم المورو المتسلمون الذين لا يعرفون شيئاً من امور دينهم الّا تقليداً وهم يصلّون في اكواخ كالعرائش. ثم بعض الوثنيين الهمج الذين يعتزلون في الغابات. ولولا قلّة المرسلين لما بقي هناك وثنيّ. وكلّ من يحكم بتزاهة يقرّ بان الاسبانيين جروا في تلك البلاد على احسن سياسة اذ اطلقوا الحرّية اللازمة للمرسلين فساعدوهم بقوّتهم الادبيّة ونشروا التمدّن الحقيقيّ في تلك الاصقاع التي قضى اهلها نحو ٤٠٠ سنة في الهناء بفضل ارباب الدين وموالاة الحكومة العاقلة

العلاقات بين الشرق والغرب

بقلم الاب انطون رباط اليسوعي

نبتدئ بعون الله فنعرض على القارئ الاديب زبدة ما جمعناه من الفوائد والمباحث التاريخيّة في العلاقات الدينيّة والادبيّة والسياسيّة والتجارية بين الشرق والغرب في القرون الاربعة الاخيرة. وليست غايتنا تأليف تاريخ كامل لكن الخاف القراء مرة بعد المرة بذلك مأخوذة عن المصادر العلميّة والآثار الخطّيّة يستطيع بواسطتها من يخلفنا من الكتبة ان يؤلف يوماً تاريخاً صادقاً يضمّ شتات الاخبار ويكشف الستار عن الاسرار فتكون معلوماتنا كحجارة أُعدّت للبناء يجدها البنّاء عند الحاجة. والله الموفق للصواب

علاقات بين الشرق والغرب

في الاجيال الوسطى

كان البحر المتوسط منذ القدم مجلبةً للثروة العظيمة التي نالتها الشعوب الساكنة على شواطئه وسبباً لارتباطها بعض ببعض وطريقاً لنشر لواء التمدن بينها وبين

الامم المتوغلة في بواطن اليابسة شرقاً وغرباً. فعلى سواحل هذا البحر ازهرت الدول الفينيقيَّة والمصرية واليونانيَّة والقرطجنيَّة والرومانيَّة وكانت كلما شاخت احداها قام مقام الدولة الهرمة دولة فتاة الى ان امتدَّت سطوة الرومانيين فدوَّخوا الشرق والغرب معاً. وكأن العناية الالهية سبقت فمهدت بهذه السيطرة والوحدة سبيلاً لانتشار الدين المسيحي في كل الاقطار. وجعلت تخيط هذه البحار خطاً للترقي الديني والادبي والمادي معاً

واذا انحدرنا الان من مراقي التصورات العموميَّة الى موضوعنا في العلاقات بين الشرق والغرب رأينا انها كانت اوائل ملتحمة اشدّ التحام بوحدة الدين والسلطة المالكة الى ان نُقلت عاصمة الملك من رومية الى القسطنطينيَّة وانفرط مع الأيام العقد الذي كان يربط انحاء العالم المتمدن فاصبح الشرق والغرب على طرفي نقيض كلٌّ منهما غريب للآخر لغة وعوائد وآداباً. لكن المسيحيين الغربيين لم يكونوا لينسوا مهبط الوحي وموطن المخلص وقبرهُ فكانوا يحجون الى الاراضي المقدسة من كلّ صوب فيغمرون الجباه بثراها. وقد حفظ لنا التاريخ آثاراً جليلة لرحلهم. وفي اواخر القرن الثامن التحمت العلاقات بين كارلوس العظيم (شارلمان) وهرون الرشيد فبنى كارلوس في القدس الشريف منازل للزوار وارسل الحسنات الطائلة لتوزَّع على الفقراء المسيحيين الشرقيين كما تنبئنا بذلك الصكوك المرتقية الى عهد شارلمان تاريخ احداها سنة ٨١٠ م (١ حتى ان المدينة القدسة كادت ان تُعتبر مدينة مسيحيَّة (٢

وبينما كان مسيحيُّو الغرب يؤمُّون الاراضي المقدسة للتبرك كان التجار الشرقيُّون من روم وسوريين ومصريين يذهبون الى الغرب للمتجر حاملين المنسوجات البديعة يبيعونها باغلى الاثمان في القصور للمثريين من الطليان والاسبان والفوليين او الافرنسيين. وقد اخبر غليلموس الصوري ان عدداً من السوريين كانوا يتاجرون بالمنسوجات في فرنسة في القرن السادس (٣ وحفظوا هذا الاحتكار حتى اواخر القرن العاشر حيث

(١ (de Guignes, *Mém. de l'Acad. des Inscript.* 1774, t. 37. p. 481)

٢) هكذا اخبر غليلموس الصوري في تاريخهِ (١ : ٢: ita utsmagis sub imperatore Karlo quam sub dicto principe [هرون] degere viderentur

٣) تاريخه (٧ : ٢١ و ٨ : ١)

جعل قوم من الطليان من سكان مدينة امالفي (Amalfi) يزاحمونهم في ذلك فيأتون لمشترى البضائع الشرقية وينقلونها الى اوربة. وفي اواخر القرن الحادي عشر اسس هؤلاء في القدس شركة تجارية وعمروا فيها فندقاً او خاناً للتجار ومارستاناً للزوّار. هذا على ما ذكرنا اول فندق غربي او بالحري مستعمرة تجارية اقيمت في البلاد السورية

وكان البندقيون (Vénitiens) قد سبقوهم في القسطنطينيّة فنالوا من الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني امتيازات تجارية وتخفيضاً في رسوم الدواوين (الكمارك) عند الدخول والخروج وما لبثوا ان تغلبوا على الامالفيين وزادوا نجاحاً وامتد لواء حكومتهم على السفن الفاخرة في البحر واقاموا الفنادق والشركات التجارية في كثير من المدن المهمة فازدادت ثروة البلاد الشرقيّة وازهرت فيها المصانع وعادت التجارة على كلا الفريقين بالفوائد

وداست الحال زمن الحروب الصليبيّة رغبة من الامراء النصارى في توسيع نطاق التجارة وترقي البلاد فكثر عدد هذه المستعمرات التجارية المنتمية الى البندقيين والى غيرهم كالجنويين والبيزيين (ايطالية) والكاتلانيين (اسبانية) والبروفنسيين (فرنسة) وعظمت ثروتهم وازدادت امتيازاتهم فاقاموا شركات في كثير من المدن كانطاكية واللاذقيّة وطرابلس وقيصرية ويافا وعكا الخ. وفي القرن الثالث عشر امتدت تجارتهم الى قبرص ومصر وبلاد المغرب ومملكة ارمينية واعطى ميخائيل بالبولوغس حيّ غلطة للبندقيين. على ان سقوط الممالك اللاتينيّة في الشرق قد كان بادئ بدء ضربة قاضية على هذه العلاقات التجارية فقطعها مدة بين الطرفين. لكنّ حاجات البلاد اضطرت الكثيرين الى تجديدها وكان حب المكسب اكبر محرّك لها لا سيما وان الغربيين كانوا قد اعتادوا في اللبس والطعام عوائد لم يرضوا تركها وقسم هامّ منها كالمنسوجات الغالية الثمن والتوابل والاباذير تأتيهم من الشرق او عن طريق الشرق فعاد التجار الى معاملاتهم وفتحوا الخانات والفنادق في كثير من الانحاء السورية وفي الجزائر وشمال افريقية ولم يزل عددها في ازدياد الى ايام تغلّب محمد الثاني على القسطنطينيّة (١٤٥٣)

كانت هذه المحلّات التجارية في الاجيال السالفة بهيئة ونظام يصعب علينا الان

فهمهُ لاختلاف احوالنا الحاضرة عن الاحوال الماضية. وذلك لانها كانت كمستعمرات مستقلة او كاحياء من احياء العواصم الغربيَّة نقلتها الضرورة او الفائدة الى الخارج من دون ان تبدل في احوالها شيئاً هاماً فكان الخان او الفندق الذي يسكنون فيهِ كبلدة صغيرة فيها يعيش السكان بمعزل عن جيرانهم الشرقيين وكان لكل شعب او عاصمة فندق خاصّ وذلك منذ القدم. وصف السائح سارّبروك (Sarrebrük) في زيارتهِ الاسكندرية سنة ١٣٩٥ فنادق خاصَّة بالافرنسيين والبندقيين والجنويين والقبرصيين والاكريديين وباهل نابولي ومرسيلية وزيونة الخ. اما الشرقي فلم يكن يعرفهم عادة الّا باسم الفرنج (Franc) ذكرًا للافرنسيين الذين اشتهروا ايام الحروب الصليبيَّة بين بقيَّة الدول الاوروبيَّة فتوسع الشعب باسمهم واطلقوهُ على كلّ الغرباء.

وكان لهذه الشركات قوانين ونظامات خاصة ورثوها خلفاً عن سلف واثبتها التقاليد واحكام سلاطين الشرق وامرائها بتمام الرضى جزاء الفائدة العائدة على البلاد من التجارة وحفظاً لموائد عريقة في القدم لم يُبدها كرور الاعوام. قال الفقيه المتضلع فيرو جيرو (Féraud—Girau) في كتابهِ عن المحاكم الافرنسية في الاساكل الشرقيَّة (١ : « اذا اختلفت مأتان اختلافاً عظيماً في الدين والطباع والشرائع والموائد فلا تؤمل بينهما علاقات ثابتة الّا اذا نال الشعب المحتمل مضض الاسفار فوائد تضمن لهُ اموالهُ وحياته. والا فلا يهجر الوطن ويعرض بنفسهِ للاخطار في الغربة رغبة في مكسب مجهول ومن ثمَّ لا بدَّ لهُ من شرائع كشرائع بلاده تصونهُ وتضمن لهُ رغائبهُ. » على اننا اذا ما تصفحنا تاريخ التجارة في البلاد الشرقيَّة رأينا انها كانت منذ القدم في حاجة ماسَّة الى اموال الغربيين ومبادلاتهم. لذا نرى البيزنطيين في القرن العاشر يسهلون على التجار القادمين من ايطالية وفرنسة سبل المعيشة ويخففون ثقل الضرائب على بضائعهم او يعفونها تماماً ويخصُّونهم بحيّ او حارة فيها يعيشون كما يروق باعينهم. ولم يجد الامراء المسلمون بعد ان تغلبوا على كلّ انحاء الشرق عن هذه الخطة رغبةً منهم في توسيع نطاق المتجر واستدرار

(١ de la Juridiction Française dans les Echelles du Levant et de Barbaris T. I, p. 29

اموال الاجانب. وكثيراً ما ترى في الآثار العتيقة حكّاماً يشكون عدم مقدرتهم على القيام بالحاجات وارسال المبالغ المطلوبة الى العاصمة لوقوف دولاب التجارة بين الاجانب او لعدم اقدامهم على المشتري. فلا عجب من ثمَّ اذا رأينا محمد الثاني الفاتح يجدّد للتجار الجنويين الساكنين في حي غلطة (القسطنطينيّة) كل الامتيازات التي نالوها من سلاطين الروم وكانوا يجرون عليها قبل الفتح

وما استقرّت قدمهُ في القسطنطينيّة الّا وسعى في اكتساب تجار الجمهوريّات الايطالية ومنحهم كثيراً من النعم والفوائد والاختصاصات المسهلة عليهم السكنى في الاساكل والمدن ولذا نرى قبل فتح القسطنطينيّة وبعدها فنادق لاكثر الامارات الايطاليّة والافرنسيّة في حلب ودمشق والاسكندرية وغيرها من المدن

ولا حاجة لوصف هذه الفنادق او الخانات وكثير منها معروف حتى الان في حلب وصيدا ودمشق الخ. هناك منازل التجار ومخازنهم يترأس عليهم القنصل كامير وقاض وحاكم يقضي بينهم ويحلّ الشاكل الطارئة عليهم ويدافع عن حقوقهم امام حكام البلاد فكان واياهم كدولة مستقلة في وسط البلاد القيمين فيها. هذا اصل القنصليات والمعاهدات (Capitulations) والامة (Nation) وسنشرح احوالها مفصلاً في عدد قادم ان شاء الله

مطبوعات شرقية جديدة

MICHAEL JAN DE GOEJE par C. Snouck Hurgronje, traduction française par M. Chauvin avec portrait, *Leide, Brill* 1911, p. 94

ترجمة حياة الاستاذ دي غوي

رُزئت الآداب العربيّة بل العلوم الشرقيّة في العام الماضي باحد كبار المستشرقين الاستاذ الهولنديّ الشهير ميخائيل جان دي غوي الذي لم يزل منذ نحو خمسين سنة يُغني المكاتب بمنشوراته وتآليفه. وقد اسعدنا الحظ بان نجتمع معهُ غير مرّة فوجدنا فيهِ قدوة العلماء ومثال الأدباء جامعاً بين العلم والعمل. ومن رآه وحادثهُ واختبر